

# العقل الجيو-تاريخي وبناء النهضة: دور تعليم التاريخ والجغرافيا في صناعة النخب القيادية

عبد الرحمن حسنيوي

على الأدلة. في هذا الإطار، يكتسب قول عبد الرحمن بن خلدون (1996) دلالة عميقة: "التاريخ في ظاهره لا يزيد عن الإخبار، وفي باطنه نظر وتحقيق"، وهو تصوّر يؤسّس لمنهجية تجعل من التاريخ علمًا نقديًا قائمًا على الفهم العميق للظواهر. كما إنّ تحليل المعاهدات والوقائع التاريخية يكشف عن طبيعة القرارات السياسيّة، ويظهر كيف تقود عوامل معينة إلى نتائج حاسمة تغيّر مجرى التاريخ، ما يدرّب المتعلّم على استنتاج أخطاء صنّاع القرار وفهم سياقاتها، ويمنحه أدوات لتقييم الواقع واستشراف المستقبل.

في المقابل، تتجاوز الجغرافيا حدود الوصف إلى مجال التحليل الاستراتيجي والجيوسياسي، إذ تتيح فهم العلاقة بين المكان والقوة، وبين الموارد والقرارات السياسيّة. ويرى إيف لاكوست (1976) أنّ "الجغرافيا تُستخدم أولًا لصنع الحرب"، وهو ما يكشف عن بعدها الاستراتيجي العميق. إنّ دراسة الخرائط وتحليل المعطيات المرتبطة بها، من موارد وممرات ومواقع استراتيجيّة، تمكّن المتعلّم من بناء رؤية جيوسياسيّة واقتصاديّة، تساعد في فهم التفاعلات الدوليّة والتفكير في حلول تستند إلى معطيات دقيقة.

يفضي تكامل التاريخ والجغرافيا إلى بناء عقل جيو-تاريخي يربط بين الزمان والمكان في تحليل الظواهر، وهو ما يشكّل أساس التفكير الاستراتيجي؛ إذ يصبح المتعلّم قادرًا على فهم الامتدادات الزمنية للقرارات، وتأثير العوامل الجغرافيّة في تشكيل الأحداث. وهو ما أبرزه فرناند بروديل (1972) حين أكد أنّ فهم التاريخ يظلّ ناقصًا من دون استحضار البنى الجغرافيّة العميقة. كما أشار

تطرح مسألة تدريس التاريخ والجغرافيا إشكاليًا عميقًا، يرتبط بعجز الأمة عن تحويل رصيدها التاريخي وموقعها الجغرافي إلى قوّة فاعلة، نتيجة اختزال هاتين المادتين في الحفظ بدل توظيفهما لبناء الوعي وصناعة القرار. فعلى الرغم من ما يتيح التاريخ من فهم لتحوّلات القوّة والانهيار، وما تمنحه الجغرافيا من أدوات لقراءة المجال وإمكاناته، يظلّ هذا الزخم المعرفي معطلًا في غياب تنمية التفكير النقدي والاستراتيجي. في هذا السياق، يبرز الذكاء الاصطناعي بوصفه فرصة لإعادة تشكيل التعلّم، عن طريق تمكين المتعلّم من تحليل الوثائق، ومقارنة الروايات، واستشراف السيناريوهات، وتحليل المعطيات الجغرافيّة بشكل ديناميكي، ما يحوّل التعلّم إلى تجربة استكشافية تفاعليّة. ومن هنا تبلور الإشكاليّة في كيفية إعادة بناء تدريس التاريخ والجغرافيا في تفاعل خلّاق مع الذكاء الاصطناعي، بما يسهم في تكوين عقل نقدي واستراتيجي، قادر على فهم الماضي واستيعاب الحاضر واستشراف المستقبل، وصناعة نخب مؤهّلة لقيادة مشروع نهضوي في الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

## تدريس التاريخ والجغرافيا: من بناء التفكير النقدي إلى تشكيل العقل الاستراتيجي

يمثّل التاريخ مجالًا خصبًا لتدريب العقل على التحليل والنقد، إذ يتيح للمتعلّم التعامل مع وقائع متعدّدة الأبعاد، وسرديات متباينة، ووثائق تحمل رؤى ومصالح مختلفة. يفتح الانتقال من التلقّي إلى التحليل أفقًا جديدًا، إذ يصبح المتعلّم قادرًا على مساءلة الروايات، ومقارنة المصادر، واستخلاص النتائج بناءً



محمّد عابد الجابريّ (1988) إلى أنّ أزمة العقل العربيّ ترتبط بأدوات التفكير ذاتها. في هذا الصدد، تكشف التجربة الميدانيّة في التدريس أنّ التحوّل الحقيقيّ في وعي المتعلّم، يتحقّق عندما يتحوّل الدرس إلى فضاء للتّحليل والمناقشة. فعند الاشتغال على الوثائق والمعاهدات، ينخرط المتعلّم في تفكيك النصوص وربطها بسياقاتها واستنتاج دلالاتها، ما يعزّز الحسّ النقديّ، بينما يفتح تحليل الخرائط والمعطيات الجغرافيّة أفق التفكير الاستراتيجيّ، عن طريق فهم التوازنات الجيوسياسيّة واستيعاب التحدّيات التي تواجه المجتمع. وهكذا، يتحوّل الفصل الدراسيّ إلى مختبر لإعداد قادة المستقبل، حيث يُدرّب المتعلّم على التفكير والتحليل واستنتاج البدائل، بما يسهم في بناء شخصيّة قياديّة قادرة على اتّخاذ القرار في سياقات معقّدة.

## تجربة تدريسيّة مدعومة بالذكاء الاصطناعيّ (نموذج تطبيقيّ)

من تجربتي في تدريس مادّة التاريخ والجغرافيا، اتّضح لي أنّ التحوّل العميق في وعي المتعلّم يتحقّق حين يتحوّل الدرس من سرد معرفيّ إلى ورشة تحليل واستكشاف. ويتعرّز هذا التحوّل بشكل نوعيّ مع إدماج الذكاء الاصطناعيّ أداة لإعادة بناء المعرفة، بحيث يصبح المتعلّم مشاركاً في إنتاج الفهم، لا مجرد متلقٍ له. في درس "العالم المتوسّطيّ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديّين" على مستوى الجذع المشترك في الثانويّ التأهيليّ، يتيح المحتوى فرصة مثاليّة لبناء التفكير النقديّ والاستراتيجيّ في آن واحد، نظراً إلى تشابك العوامل السياسيّة والاقتصاديّة والدينيّة والجغرافيّة التي شكّلت هذا الفضاء التاريخيّ.

فعند الاشتغال على تحليل الوثائق التاريخيّة، مثل نصوص حول التوسّع العثمانيّ أو الاكتشافات الجغرافيّة أو الصراع بين القوى المسيحيّة والإسلاميّة، يمكن توظيف أدوات الذكاء الاصطناعيّ لتحليل الخطاب داخل هذه النصوص: استخراج المفاهيم المركزيّة، وتحديد طبيعة الفاعلين، وتمييز المصالح المتضاربة. هنا لا يكتفي المتعلّم بفهم الحدث، وإنّما ينخرط في تفكيك بنيته العميقة. على سبيل المثال، يمكن تقديم نصّ حول توسّع الدولة العثمانيّة في البحر المتوسّط، ثمّ تكليف المتعلّم باستخدام أداة تحليل نصوص لتحديد عناصر القوّة التي اعتمدت عليها الدولة، ثمّ مناقشة الإشكال الآتي: ما الأخطاء الاستراتيجيةّ التي وقعت فيها القوى الأوروبيّة في بداية هذا التوسّع؟ وكيف استغلّت الإمبراطوريّة العثمانيّة ذلك؟

بهذا الشكل، يتحوّل التاريخ إلى مجال لبناء الحكم النقديّ، ومحاولة إسقاطه على الواقع العربيّ الراهن. أمّا على مستوى تحليل الوقائع والمعاهدات، فيمكن الاشتغال على معطيات مثل معاهدة تورديسيلاس، بحيث يُطلب إلى المتعلّمين تحليل بنودها باستخدام أدوات الذكاء الاصطناعيّ، ثمّ استنتاج كيف قُسم العالم بين القوى الاستعماريّة (الإسبان والبرتغال). بعد ذلك، يمكن طرح سيناريو بديل: كيف كان يمكن لدول أخرى أن تتدخّل لتغيير هذا التوازن؟ هذا النوع من الأسئلة يعزّز التفكير الافتراضيّ والاستراتيجيّ.

في البعد الجغرافيّ، يشكّل الدرس مدخلاً غنيّاً لتطوير التفكير الجيوسياسيّ، فعن طريق تحليل الخرائط التي تُظهر طرق التجارة في البحر المتوسّط وتحوّلها نحو المحيط الأطلسيّ، يمكن توظيف أدوات ذكاء اصطناعيّ تفاعليّة، لتمكين المتعلّم من ملاحظة التحوّلات في مراكز القوّة الاقتصاديّة. على سبيل المثال، يمكن عرض خريطة للتجارة قبل الاكتشافات الجغرافيّة وأخرى بعدها، ثمّ استخدام أدوات تحليل البيانات لاستخلاص الفروق، وربطها بصعود القوى الأوروبيّة الأطلسيّة وتراجع الدور المتوسّطيّ والوساطة الإسلاميّة. كما يمكن طرح إشكاليّة تطبيقية: كيف أثّرت الاكتشافات الجغرافيّة في مكانة العالم الإسلاميّ في التجارة العالميّة؟

ومن ثمّ، يحلّل المتعلّم المعطيات الجغرافيّة (الممرّات البحريّة، الموانئ، الموارد)، واستنتاج التحوّلات، ثمّ اقتراح بدائل استراتيجيةّ كان يمكن اعتمادها. ويمكن للذكاء الاصطناعيّ أن يساعد في محاكاة هذه السيناريوهات، بتقديم نماذج افتراضيّة لمسارات تجاريّة بديلة. هذا التداخل بين تحليل الوثيقة التاريخيّة واستكشاف الخريطة الجغرافيّة، في تفاعل مع أدوات الذكاء الاصطناعيّ، يخلق وضعيّة تتعلّم مركّبة، ينتقل فيها المتعلّم من الفهم إلى التحليل، ومن التحليل إلى التقييم، ومن التقييم إلى الاستشراف. وهكذا، تتشكّل ملامح العقل النقديّ والاستراتيجيّ للمتعلّم.

## نحو نموذج تربويّ لصناعة النخب

يتطلّب بناء نخب قادرة على قيادة النهضة إعادة صياغة النموذج التربويّ، بحيث يقوم على تنمية مهارات التفكير بدل الاكتفاء بنقل المعرفة، عن طريق تحويل المتعلّم إلى فاعل داخل العمليّة التعليميّة، يمتلك القدرة على التساؤل والتحليل، وبناء التصدّورات الخاصّة به. في هذا السياق، يمكن اقتراح مجموعة

من الآليّات العمليّة التي تجعل من الدرس فضاءً حيّاً لإنتاج الفكر: اعتماد تحليل الوثائق التاريخيّة مدخلاً أساسيّاً للتدريس، بتقديم نصوص أصليّة ومتنوّعة، ومساعدة المتعلّم في تفكيكها، ومقارنة مضامينها، واستنباط دلالاتها العميقة؛ وكذلك إدماج الخرائط التفاعليّة في دراسة الجغرافيا، بما يسمح بفهم ديناميّة المجال وتحوّلاته، وربط الظواهر الجغرافيّة بالعوامل الاقتصاديّة والسياسيّة؛ بالإضافة إلى تشجيع النقاشات المفتوحة حول القضايا التاريخيّة والجيوسياسيّة، بما يعزّز روح الحوار، وينمّي القدرة على الدفاع عن الرأي بالحجّة، وتقبّل الاختلاف بوصفه جزءاً من البناء المعرفيّ؛ وربط الدروس بالواقع المعاش للمتعلّم، حتّى تتحوّل المعرفة من معطى مجرد، إلى أداة لفهم الحياة اليوميّة واتّخاذ المواقف الواعية.

كما يمكن توسيع هذا النموذج عن طريق توظيف أدوات الذكاء الاصطناعيّ في تحليل المعطيات التاريخيّة والجغرافيّة، ومقارنة النماذج، ومحاكاة السيناريوهات، بما يمنح المتعلّم تجربة تتعلّم تفاعليّة تدمج بين المعرفة النظرية والتطبيق العمليّ. لا يهدف هذا التوجّه فقط إلى تحسين التحصيل الدراسيّ، وإنّما إلى إعادة تشكيل البنية الذهنيّة للمتعلّم، ليصبح قادراً على الربط بين الأسباب والتأّنج، واستشراف المآلات، وبناء قراراته على أساس تحليل موضوعيّ للمعطيات. يهدف هذا النموذج التربويّ في عمقه إلى تكوين عقل مستقلّ، قادر على الفهم العميق، واتّخاذ المواقف انطلاقاً من تحليل دقيق، وتجاوز الانفعالات اللحظيّة نحو التفكير المتوازن المبنيّ على الأدلة، وهو ما يشكّل الأساس في بناء نخب تمتلك القدرة على قيادة مشاريع الإصلاح، والإسهام الفعليّ في تحقيق النهضة الحضاريّة للأمة العربيّة الإسلاميّة؛ نخب تجمع بين المعرفة والوعي، وبين الفهم والمسؤوليّة، وبين الإدراك التاريخيّ والبصيرة الجغرافيّة، لتكون قادرة على الإسهام في صناعة مستقبل أكثر توازناً واستقراراً.

\*\*\*

يمثّل تدريس التاريخ والجغرافيا وفق مقاربة نقديّة واستراتيجيّة، مدخلاً أساسيّاً لبناء عقل قادر على فهم العالم والتفاعل معه بوعي، وهو وعي لا يكتفي بملاحظة الظواهر، بل يسعى لتفكيكها واستيعاب بنياتها العميقة، واستكشاف العلاقات التي تحكم مساراتها. بهذا المسار، يمكن تكوين جيل من القادة الذين يمتلكون أدوات التحليل، ورؤية استراتيجيةّ، وقدرة على اتّخاذ القرار، إضافة إلى حسّ تاريخيّ يحصّنها من تكرار أخطاء الماضي، وإدراك جغرافيّ يمكّنهم من قراءة مواقع القوّة والضعف في محيطهم الإقليميّ والدوليّ.

لا تُبنى النهضة الحضاريّة بالشعارات أو بالخطابات، وإنّما تبدأ من إعادة بناء العقل ذاته، وهذا البناء يمرّ عبر تعليم يحرّر الفكر من التلقين، ويعيد إليه قدرته على التساؤل والنقد والتفكير في البدائل. كما يمرّ عبر ربط المعرفة بالواقع، وتحويل الدرس إلى فضاء حيّ للتفكير والتجريب. وعندما يلتقي هذا التكوين المعرفيّ مع أدوات العصر، بما في ذلك إمكانيات الذكاء الاصطناعيّ، تتعرّز قدرة المتعلّم على التحليل والتنبؤ، وتصبح المدرسة فضاءً لإنتاج المعرفة لا استهلاكها، ومختبراً لتشكيل الوعي لا مجرد محطة عبور. بهذا المعنى، يغدو التعليم مشروعاً حضاريّاً متكاملًا، يصوغ الإنسان القادر على الفعل، ويؤسّس لعقل جماعيّ يملك أدوات الفهم والإبداع، ويستعيد للأمة قدرتها على المبادرة وصناعة المستقبل بثقة واستقلاليّة.

## عبد الرحمن حسنيوي

## أستاذ التعليم الثانويّ التأهيليّ

### المغرب

## المراجع

- الجابريّ، محمّد عابد (1988). *تكوين العقل العربيّ*. مركز دراسات الوحدة العربيّة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (1996). *المقدّمة*. (تحقيق: الجويديّ، درويش). الدار العصريّة.

- Braudel, F. (1972). *The Mediterranean and the Mediterranean world in the age of Philip II* (Trans: S. Reynolds). Harper & Row.
- Jaspers, K. (1953). *The origin and goal of history*. Yale University Press.
- Lacoste, Y. (1976). *La géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre*. Maspero.